بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإسراء

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ خير خلق الله.

وبعد.. فهذه سورة «الإسراء»، والتي تسمىٰ أيضًا.. بسورة «سبحان» وتسمىٰ ثالثًا.. بسورة «بني إسرائيل».

هي سورة مكية، تبدأ بذكر هذه الحادثة العجيبة، والمعجزة البديعة للنبي ﷺ وهي «حادثة الإسراء». يقول الله تعالىٰ:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

أي: ﴿سُبْحَانَ﴾ أنزه وأقدس وأعظم ﴿الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ وهو الله سبحانه ﴿بِعَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ في جزء يسير من الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بمكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وهو بيت المقدس البعيد عن مكة ﴿الَّذِي بَارَكْنَا﴾ دينًا ودنيا، في الخيرات، وكثرة العباد والدعاة إلىٰ الله ﴿حَوْلَهُ﴾ من كل جوانبه.

وذلك: ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أي: محمدًا ﷺ ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ الكبرىٰ، الدالة علىٰ: الوحدانية، والقدرة، وصدق الوحي الذي ينزل عليه.

وبالطبع: هذا حدث عظيم، وسيختلف الناس حوله، وسيقولون ويقولون.

والله عز وجل سميع لكل ما يقولونه، عالم به.

حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ عز وجل ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بجميع مخلوقاته.

ولمَّا ذكر المولىٰ تكريم محمد ﷺ بالإسراء، ذكر عقيبه تكريم موسىٰ عليه السلام بالتوراة.. وفي ذلك تدليل علىٰ وحدة الرسالة، ووحدة الوحي. حيث قال عز وجل:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾

يعني: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿هُدًى﴾ هاديًا ومرشدًا ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وأوحينا لموسىٰ فيه أن يقول لبني إسرائيل: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى﴾ من أحد غيري ﴿وَكِيلًا﴾ تتكلون عليه في أموركم، وتعتمدون عليه في شؤونكم، وتعبدونه.

حيث إن الله وحده سبحانه، هو الوليّ، والوكيل، والنصير، والمعبود.

ثم قال دعوة لهم إلىٰ الطاعة:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

أي: يا ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ﴾ في السفينة، يا ذرية من نجيناهم تشبهوا بآبائكم، الذين نجوا في الإيمان والطاعة، وتشبهوا كذلك بنوح عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا﴾ خالصًا لله في عبوديته، مطيعًا له في شريعته ﴿شَكُورًا﴾ له علىٰ نعمه.

وهي: دعوة لبني إسرائيل، كما أنها في ذات الوقت دعوة لكل الأمم.. أن تؤمن، وتطيع، وتشكر.

ولمَّا بين ربنا تبارك وتعالىٰ أنه أنعم علىٰ بني إسرائيل بإنزال التوراة علىٰ نبيهم موسىٰ عليه السلام.. ولمَّا بين كذلك أنه: جعلها هدى لهم، عقب علىٰ هذا البيان، بأنهم ما اهتدوا بهداه، بل وقفوا في الفساد.. فقال تعالى:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

يعني: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أوحينا إليهم وأخبرناهم

بقولنا ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، وخلاف أحكام التوراة، وإيذاء عباد الله ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ من الإفساد ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ على الناس ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ واستعلاء بليغًا، بغير الحق، وعن طريق الخداع والمكر.

ولكن.. ألهذا الفساد في الأرض، والاستعلاء بغير الحق في المرتين.. من نهاية ؟ نعم. فلنقرأ كلام ربنا الحكيم الخبير، وهو يقول:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾

والمعنى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ بالعقاب، وأفسدتم المرة الأولى، وظهر فسادكم وإفسادكم في الأرض، وفسقكم بين الناس ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ وأرسلنا أناسًا يتصفون بصفتين:

الأولى: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ يؤمنون بنا، ويلتزمون بشرعنا، ويُصلحون في الأرض، ولا يفسدون.. أي يمتلكون قوة الإيمان.

الثانية: ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أصحاب قوة في كل شيء، وتفوق في كل شيء.. أي: يمتلكون قوة السلاح، والردع والتخويف.

نتساءل ماذا يفعل هؤلاء الناس المتصفون بالإيمان والقوة، والذين يرسلهم الله عليهم ؟

والجواب من الله تعالى.. حيث يقول: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ﴾ أي: عذبوهم، ونكلوا بهم، وقتلوا فيهم، وجاسوا يطاردونهم خلال الديار في شوارعها وفي بيوتها ليقتلون البقية منهم.

﴿وَكَانَ﴾ هذا ﴿وَعْدًا﴾ صادقًا ﴿مَّفْعُولًا﴾ واقعًا بهم من الله تعالى.

وماذا بعد هذه المرة التي يُسامون فيها من عباد الله الأشداء هذا العذاب؟

يقول الله عز وجل:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾

أي: ﴿ثم﴾ بعد مدة طويلة من الزمان ﴿رَدَدْنَا﴾ وأعدنا ﴿لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ وهي الغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والقهر لهم، ورفعنا الذل عنكم.

وذلك: بعد أن ينحرف عبادنا ويهملون شرعنا، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون.. ويضيع منهم التفوق، وتبتعد عنهم القوة، بل يصابون بالوهن وهو حب الدنيا وكراهية الموت .﴿وَ﴾ في هذه الحال كذلك، نكون قد ﴿أَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ بعد أن كانوا سابقًا ـ أفنوا أموالكم، وقتلوا أبناءكم .﴿و﴾ أيضًا ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أكثر عددًا مما كنتم، وأعلىٰ صوتًا. وعلى كل حال..

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾

يعني ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ بالطاعة لله، والشكر علىٰ نعمه، وعدم الإفساد في الأرض، والاستعلاء والإيذاء للخلق ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ﴾ لأن جزاء هذا الفعل: هو الخير يعود عليكم، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ وأفسدتم في الأرض وآذيتم أهلها ﴿فَلَهَا﴾ أي: فلأنفسكم هذا الإيذاء؛ حيث يعود وباله وضرره عليها.

ولذلك: إن كنتم عقلاء فأحسنوا.. !! وإلَّا. .﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالعقاب، وأفسدتم المرة الثانية، وظهر فسادكم وإفسادكم في الأرض، وفسقكم بين الناس، بعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد.. وذلك ﴿لِيَسُٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ بالإيذاء لكم، والتنكيل بكم، والقتل فيكم.

﴿و﴾ كذلك ﴿لِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ وهو بيت المقدس، وينتزعوه من أيديكم ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ وانتزعوه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

﴿و﴾ ثالثًا ﴿لِيُتَبِّرُوا۟﴾ ويهلكوا ويدمروا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ واستولوا عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾ تدميرًا بليغًا.

وكان هذا كذلك: وعدًا صادقًا مفعولًا، واقعًا بهم ـ لا محالة ـ من الله تعالىٰ.

يلاحظ: أن الناس كثيرًا ما يتساءلون عن هاتين المفسدتين وهل وقعتا، أو وقعت منهما واحدة وبقيت الثانية.. إلخ، هذه الأسئلة التي أضرب القرآن عن الحديث المحدد فيها؛ حيث لا يتعلق كثير فائدة بمعرفة هذه الأمور، وتحديد أعيان المراد بهم فيها، بل المقصود: هو أنهم لمَّا أكثروا من المعاصي سلَّط الله عليهم أقوامًا قتلوهم وأفنوهم.

ولذلك.. يقول لهم ربنا سبحانه وتعالىٰ:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

والمعنىٰ: لعل رَبَّكُمْ ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يا بني إسرائيل.

ثم قال لهم مهددًا: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، يعني: بعثنا عليكم من بعثنا، ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم، وعظة لتنتفعوا به، وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصي.

ثم رحمكم فأزال عنكم هذا العذاب، فإن عدتم مرة أخرى إلىٰ المعصية والإفساد في الأرض، والفسق بين الناس؛ عدنا وبعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد، فجاسوا خلال دياركم يقتلونكم ويسوءون وجوهكم، ويدخلون المسجد وينتزعونه منكم، وهذه بشارة للمسلمين إذا اتصفوا بالعبودية الحقة، وامتلكوا القوة.

ويلاحظ: أن هذا لهم في الدنيا؛ حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

كما يلاحظ: أنهم عادوا إلىٰ الإفساد؛ حيث كذبوا محمدًا ﷺ، فعاد الله عليهم بالتعذيب، وبعث مَن يسومهم سوء العذاب في بني قينقاع، بني النضير، وبني قريظة، وخيبر.

ويلاحظ ثالثًا: أن هذا التهديد ماض في الباقين منهم اليوم، وإلىٰ يوم القيامة.

بقي أن يوجد في مواجهتهم، ووقف إفسادهم، ورد بغيهم: عباد الله، الموصوفون بالإيمان، والقوة؛ الذين يحاربون هؤلاء الكافرين، الذين تنتظرهم جهنم، وهي لهم كما قال الله ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ تحيط بهم من جميع الجهات، ولا يفلتون منها أبدًا.

هذا.. ولمَّا بيَّن المولىٰ ما يفعله في حق عباده المخلصين الطائعين.. كالإسراء برسول الله ﷺ، وإيتاء الكتاب لموسىٰ عليه السلام.. وبيَّن كذلك ما يفعله في حق العصاة والمتمردين.. وهو تسليط البلاء عليهم. بيّن سبحانه أن طريق الطاعة والنجاة من البلاء: هو الاهتداء بهدي القرآن الكريم.. فقال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي أنزله الله علىٰ محمد ﷺ ﴿يَهْدِى﴾ ويرشد ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: للطريقة التي هي أعدل وأفضل في الاعتقاد والشريعة والسلوك.. إلخ.

﴿و﴾ كما أنه ثانيًا ﴿يُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عقيدة وعبادة، وإصلاحًا للبلاد، وإسعادًا للعباد ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وهو الجنة.

ثم يبشر القرآن المؤمنين كذلك بما في قوله تعالىٰ:

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

وليس هذا بغريب، حيث إن الاعتقاد الأصوب، والعمل الأصلح، كما يوجب لفاعله النفع الأكمل الأعظم، فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الأعظم الأكمل.

وبعد أن بين ربنا بعض أوصاف القرآن الذي يهدي الإنسان، وضح سبحانه بعض أوصاف هذا الإنسان، الذي ينبغي عليه أن يهتدي بالقرآن. فقال تعالى:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

أي: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ربه متسرعًا ومطالبًا ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ مستهينًا به ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ﴾ أي: كما يدعو بالخير، لا يفرق بين ما يضره وما ينفعه.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بطبعه ﴿عَجُولًا﴾ متسرعًا، يتعجل قطف الثمرة، ونوال النتيجة، قبل الاستعداد الكامل، والتهيؤ التام، وفي هذا توجيه للإنسان وتربية علىٰ التأني، والدقة في امتلاك العدة، وتوجيه لمن يتعجلون النصر دون سلوك طريقه الصحيح، وامتلاك أدواته اللازمة المناسبة.

ولمَّا كان القرآن، وهو كتاب الله: من نعم الدين علىٰ الإنسان؛ كان الليل والنهار، وهما من خلق الله: من نعم الدنيا ـ كذلك ـ علىٰ الإنسان. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

يعني: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ﴾ من الآيات الكثيرة، الدالة علىٰ وحدانيتنا وقدرتنا.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: طمسنا نورها بالظلام؛ لتسكنوا فيه.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: منيرة بضوء الشمس ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾ في النهار، وتتكسبوا أرزاقكم، وتؤدون مصالحكم ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عليكم.

﴿و﴾ كذلك ﴿لِتَعْلَمُوا۟﴾ عن طريق الليل والنهار ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي تمر بكم، وتنظمون فيها مواعيدكم وأوقاتكم ﴿وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ لمعاملاتكم، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ علىٰ هذا النحو، ولصالحكم ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ وبيناه ﴿تَفْصِيلًا﴾ لا يحتاج بعده إلىٰ بيان.

يقول الله تبارك وتعالىٰ: أعطيتكم هذه النعم في الدين والدنيا.. فهل أطعتموني؟

علىٰ كل حال.. فإني مسائلكم يوم القيامة:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ﴾ وقيدنا ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي: عمله ﴿فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾ لا ينفك عنه، خيرًا كان أو شرًّا.. وذلك في يوم القيامة.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ كذلك ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أمام أهل الحشر جميعًا ﴿كِتَٰبًا﴾ مسجلًا ومكتوبًا فيه عمله ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ يمكن له ولغيره أن يقرأ ما فيه.

ثم يقال له:

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾

أي: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أيها الإنسان ﴿كِتَٰبَكَ﴾ الذي سجلت فيه عليك أعمالك ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ﴾ ولنفسك ﴿ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ وشاهدًا، حيث تنطق أعضاؤك وتشهد عليك فلا تستطيع الإنكار.. حقًّا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ما دامت النعمة في الدين والدنيا قد يسرت، وما دام ثواب المطيع وجزاء العاصي قد اتضح؛ فإنه:.

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾

يعني: لتكن هذه الأمور معلومة:

أولًا: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ بالقرآن للتي هي أقوم في كل شيء ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ ونتيجة اهتدائه له.

ثانيًا: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن هدى الله، وبعد عن طريق الصواب ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ ويجلب الضرر ﴿عَلَيۡهَا﴾ يعني نفسه.

ثالثًا: ﴿و﴾ كل إنسان مسؤول عن نفسه، كل امرئ بما كسب رهين، حيث ﴿لَا تَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٞ﴾ آثمة ﴿وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾ ذنب نفس أخرىٰ.. أي: لا يحمل أحد ذنب أحد آخر.

رابعًا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ أحدًا ﴿حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ يبين له طريق الصواب، ويدعوه إلىٰ الرشاد.

خامسًا: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾

يعني: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ﴾ أهل قَرۡيَةٖ، أي: بلد ﴿أَمَرۡنَا﴾ علىٰ ألسنة رسلنا ﴿مُتۡرَفِيهَا﴾ رؤساءها وأغنياءها والمنعمين فيها.. بالطاعة، واتباع الرسل، ﴿فَفَسَقُواْ﴾، وبدل أن يطيعوا: طغوا وبغوا، وفسقوا فيها، ونشروا الفسق بين أهلها.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ بالعذاب ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ أي: القرية على أهلها ﴿تَدْمِيرًا﴾.

وهذا قد حدث كثيرًا.. يقول القوي العزيز:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

يعني: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ كثيراً ﴿مِنَ﴾ الأمم أهل ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ والأزمان التي جاءت ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ عليه السلام؛ بسبب كفرها وطغيانها، وفسقها.

وذنوب العباد لا تخفى على الله أبدًا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ وحده ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ يعلمها، وإن أخفوها في الصدور ﴿بَصِيرًا﴾ وإن أرخوا عليها الستور.

ولمَّا كان طلب الدنيا هو ـ في الغالب ـ سبب الانحراف، وكان طلب الآخرة هو ـ دائمًا ـ سبب الهداية؛ وضح الله سنة من سننه في هؤلاء وهؤلاء.. حيث يقول سبحانه عن طلاب الدنيا فقط:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾

أي: ﴿مَن كَانَ﴾ من الناس ﴿يُرِيدُ﴾ بعمله، نوال ما في ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وهي الدنيا: ﴿عَجَّلْنَا﴾ أعطينا ﴿لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لا ما يشاء هو، وليس عطاؤنا هذا لكل أحد، بل ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أن نعطيه فقط.. فالأمر بيدنا لا بيد غيرنا، والعطاء من عندنا لا من عند غيرنا.

﴿ثم﴾ لأنه لم يرد إلَّا الحياة الدنيا فقط، وأغفل طاعة الله، وأنكر وجود الله، وطغى بنعم الله ﴿جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ دارًا وقرارًا ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلها فتغمره بلهيبها من كل جوانبه حالة كونه ﴿مَذْمُومًا﴾ ملومًا محتقرًا ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا من رحمة الله.

ثم يقول سبحانه عن طلاب الآخرة:

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

أي: ﴿وَمَنْ﴾ كان من الناس، قد ﴿أَرَادَ﴾ بعمله نوال ما في ﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾ من نعيم ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ اللائق بها، والمناسب لنوالها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق وعد الله متبع رسوله ﷺ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أصحاب هذه الصفات: إرادة الآخرة، والسعي لها، والإيمان، ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولًا عند الله تعالى، مجازى عليه منه سبحانه. ثم يقول صاحب النعم سبحانه:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

يعني: ﴿كُلًّا﴾ من الفريقين طلاب الدنيا، وطلاب الآخرة ﴿نُّمِدُّ﴾ أي: نعطي ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ رزقًا ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ﴾ تفضلًا وتكرمًا ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ عن أحد من خلقه، ولو كان عاصيًا. ثم يقول سبحانه:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

أي: ومع هذا العطاء ﴿ٱنظُرْ﴾ أيها الإنسان، بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أي: بعض الناس ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا.. من حيث: المال، والجاه، والحسن، والعمر.. إلخ.. حقًّا: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

مع ذلك فلا وزن لهذا التفاضل في الدنيا. ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أعظم ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ من الدنيا ﴿وَأَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿تَفْضِيلًا﴾ من الدنيا.. فالآخرة باقية، والدنيا فانية، فاعتن بالآخرة.

ولمَّا بين الله تعالىٰ أن نوال سعادة الآخرة مشروط بإرادتها، والسعي لها، والإيمان كذلك، وكان هذا علىٰ وجه الإجمال. ثم شرع في التفصيل فقال:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

يعني: لا تشرك ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ أحدًا ﴿فَتَقْعُدَ﴾ في الدنيا لا ناصر لك ﴿مَذْمُومًا﴾ علىٰ هذا الشرك ﴿مَّخْذُولًا﴾ من الرب سبحانه. وهذا هو الأمر الأول لنوال سعادة الآخرة.

ولمَّا ذكر الأمر الأول لنوال السعادة في الآخرة، أتبعه بما يوصل إلىٰ هذه السعادة كذلك.. فقال تعالى:

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

يعني: ﴿وَقَضَىٰ﴾ أي: حكم وأمر ﴿رَبُّكَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ أحدًا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ عز وجل؛ لتنالوا السعادة في الآخرة، ﴿و﴾ أمر كذلك أن تحسنوا ﴿بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ عظيمًا، في كل وقت، وعلىٰ كل حال، لتنالوا السعادة في الآخرة.

وعلىٰ وجه الخصوص ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي: يكونا في كفالتك ورعايتك، لكبر سنهما أو عجزهما.

وفي هذه الحال عليك هذه الأشياء:

١ ـ ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ﴾ أو لأحدهما ﴿أُفٍّ﴾ وهي عبارة تدل علىٰ أدنىٰ درجات الضجر منهما، أو من أحدهما.. بل أكرمهما واخدمهما، كما أكرماك وخدماك في ضعفك وصغرك.

٢ ـ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أو أحدهما، بالقول أو بالفعل.

٣ ـ ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ طيبًا حسنًا مهذبًا.

كذلك. ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ أي:

٤ ـ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ يعني: تواضع لهما، واعطف عليهما، وبالغ في ذلك رحمة بهما.

٥ ـ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أي: قل داعيًا لهما في كبرهما، أو بعد موتهما ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ برحمتك الواسعة ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ وشملتني رحمتهما.

يا أيها الناس:

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

أي: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ﴾ من رغبة في البر بالوالدين، والإحسان إليهما، فضلًا عن النشاط في هذا البر والإحسان.

وعلىٰ كل حال ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ معهما، بارين بهما، قاصدين الإحسان إليهما؛ طاعة لله، وإكرامًا لهما.. فإن الله ﴿كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ لذنوبهم، وخطاياهم.

يعني: يا مَن أسأتم لهما، أو لم تحسنوا في حقهما، توبوا إلىٰ الله وأنيبوا إليه، يقبل توبتكم، ويغفر ذنوبكم، وتنالوا السعادة في الآخرة.

وبعد أن ذكر ربنا بر الوالدين، وضرورة الإحسان إليهما، أتبع ذلك بما يوصل ـ أيضًا ـ إلىٰ السعادة في الآخرة. حيث قال عز وجل:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

يعني: ﴿وَآتِ﴾ وأعط ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أي: الأقارب حقوقهم في مالك، بالإنفاق والتصدق عليهم، وفي معاملتك: بصلتهم، والسؤال عنهم، والاهتمام بأمورهم، والعطف عليهم.

﴿و﴾ آت أيضًا ﴿الْمِسْكِينَ﴾ حقه في مالك.. بالإنفاق عليه، والإحسان إليه.

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ كذلك آته من مالك ما يبلغه مقصده.

ولمَّا أمر ربنا بالإنفاق، للمال: اشترط عدم التبذير والإسراف فيه، فقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾ في المال ﴿تَبْذِيرًا﴾ يخرجه عن حده.

ولكن، لماذا يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾؟

يعني: لا تكونوا مبذرين في إنفاق المال، في غير طاعة الله، أو فيما هو زائد عن

حاجتكم، حيث ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: أمثالهم في معصية الله.

ولأن هذا الإسراف إساءة لنعم الله ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لنعمِ ربِّهِ ﴿كَفُورًا﴾ فلا تكونوا مثله، بل اجعلوا المال طريقًا ووسيلة لنوال السعادة في الآخرة.

وبعد أن أمر ربنا بإيتاء ذي القربىٰ حقه والمسكين وابن السبيل، وبعد أن نهىٰ عن الإسراف والتبذير.. أرشده إلىٰ حسن التصرف عند عدم القدرة علىٰ إعطاء هؤلاء، فقال الحق تبارك تعالى:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

أي: إما أن تعطيهم ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ وتتركهم، لعدم قدرتك علىٰ إعطائهم، وأنت في ذات الوقت تبتغي رَحْمَةً ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ بك، وفضلًا عليك، ونعمة ﴿تَرْجُوهَا﴾ منه؛ لتعطيهم منها، ﴿فَقُل لَّهُمْ﴾ في هذه الحال ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: قولًا لينًا، فيه ما يشعرهم أنه إذا يسر الله الحال، فستعطيهم من فضل الله.

ولمَّا أمر ربنا تبارك وتعالىٰ بالإنفاق الأمثل علىٰ الأقارب والمساكين، وأبناء السبيل، أرشد سبحانه إلىٰ الإنفاق الأمثل عمومًا، فقال عز وجل:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

يعني: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ مربوطة ﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وهذا كناية عن البخل في الإنفاق، كذلك ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ في الإنفاق ﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: لدرجة الإسراف، وإلَّا ﴿فَتَقْعُدَ﴾ بسبب هذا البخل ﴿مَلُومًا﴾ وبسبب هذا الإسراف ﴿مَّحْسُورًا﴾.

بل عليك بالاقتصاد في الإنفاق، بلا بخل ولا إسراف؛ حتىٰ تنال السعادة في الدنيا والآخرة.

ولمَّا نهىٰ ربنا عن البخل وعن الإسراف، بيّن أن الرزق منه، وأنه يوسع فيه علىٰ مَن يشاء، ويضيق فيه ـ كذلك ـ علىٰ مَن يشاء؛ لعلمه بمصالح عباده في هذا وذاك.

فقال الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ هو الذي ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من خلقه ﴿وَ﴾ هو الذي ﴿يَقْدِرُ﴾ أن يضيق الرزق علىٰ مَن يشاء من عباده.

وما دام الأمر كذلك، فلا تبخلوا ولا تسرفوا، لتنالوا السعادة في الآخرة.

حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ ومصالحهم ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

ولمَّا بين المولىٰ عز وجل، أن الرزق منه، وأنه وحده المتكفل بأرزاق العباد؛ نهىٰ عن قتل الأولاد مخافة الفقر. فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

يعني: اطمئنوا علىٰ أرزاقكم أيها الأغنياء ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ بالوأد للبنات، ودفنهن أحياء، كما كان العرب يفعلون، أو بالإجهاض، أو بالمنع من الإنجاب ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: خوف الفقر؛ حيث إنه سوء ظن بالله الرازق، وذلك ضد الواجب من تعظيم الله، أو خشية عار، حيث إنه تخريب للعالم، وذلك ضد الشفقة علىٰ خلق الله.

لا تفعلوا ذلك، فإننا ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ لا أنتم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيضًا نرزقكم معهم، فأنتم لا ترزقون أنفسكم، فضلًا عن رزقهم.

لا تفعلوا ذلك: حيث ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ عند الله، وعادة سيئة من أهلها. لا تفعلوا ذلك، فهو حائل لكم، ومانع من نوال السعادة في الآخرة.

ولمَّا نهىٰ القوي العزيز عن قتل الأولاد علىٰ هذا النحو، أتبع ذلك بالنهي عن قتل الكرامات، بهتك الأعراض. فقال جل وعلا:

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ ولا تفعلوا ما يوصل إلىٰ ﴿ٱلزِّنَىٰٓ﴾ من مقدماته؛ كالنظرة، واللمس، والقبلة. والنهي عن الاقتراب منه، أبلغ في التخويف من النهي عنه مباشرة، كما أن فيه إبعاد عن ساحته، ومَن حام حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه.

وكان النهي على هذا النحو.. حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الزنى ﴿كَانَ﴾ فعلة ﴿فَٰحِشَةً﴾ قبيحة ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وطريقًا إلى الخسران في الدنيا، والعذاب في الآخرة. ثم نهى عن قتل النفس البشرية.. فقال الحق سبحانه:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

والمعنى: ﴿و﴾ لتنالوا السعادة في الآخرة ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ﴾ البشرية ﴿ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، **وهو إحدى ثلاث:** النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، **ويدخل في هذه الآية:** النهي كذلك عن قتل الإنسان لنفسه أي: الانتحار.

ولو حدث وقُتِل أحدٌ لسبب غير هذه الأسباب: فقد قُتِل مظلومًا.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا﴾ شرعًا ﴿لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وحق على القاتل، إما القصاص، وإما الدية، وإما العفو التام. فإذا اختار ولي المقتول القصاص ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ بالتمثيل بالجثة، أو يقتل غير القاتل. حيث ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ من الله بأخذ حقه.

ولمَّا نهى الحكيم الخبير عن قتل النفس البشرية إلَّا بالحق، أتبع ذلك بالنهي عن إيذاء اليتيم في ماله.. حيث إن ذلك نوع قتل له. فقال جل جلاله:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾

يعني: تصرفوا أيها الأولياء في مال اليتيم بما يصلحه وينمِّيه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ هذا المال ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ في التصرفات المفيدة، وذلك ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ويستطيع التصرف في ماله، فلا تقربوه بعد ذلك، إلَّا بالنصيحة وحسن المشورة، ولأن الامتثال لهذا النهي، طريق لنوال السعادة في الآخرة، وتصرف لصالح المجتمع، فقد أمر ربنا عقيبه **بثلاثة أوامر** لنفس الغرض:

الأول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ مع الله، أو مع الناس ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ﴾ الإنسان ﴿مَسْـُٔولًا﴾ عن الوفاء به.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

الثاني: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ وأتموه لغيركم ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لهم، أو بعتم.

والثالث: ﴿وَزِنُوا۟﴾ للناس عطاءً، ولكم أخذًا ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ أي: الميزان ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ المعتدل، الذي لا انحراف به، ولا غش بسببه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿خَيْرٌ﴾ لكم في دينكم ودنياكم، وفي معاشكم وأخراكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: مآلًا وعاقبة وجزاءً، وطريقًا لنوال السعادة في الآخرة.

ولمَّا ذكر ربنا هذه الأوامر الثلاثة: عقب عليها بثلاثة أشياء نهىٰ عنها سبحانه، فقال في **النهي الأول:**

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

أي: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ تتبع، وتتدخل بالظن في ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وتقول: رأيت ما لم تر، أو سمعت ما لم تسمع، أو علمت ما لم تعلم. حيث ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ﴾ واحد من ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ له وظيفة ناطها الله به، وطلب منا أن نستعمله فيها. ولذلك: ﴿كَانَ﴾ الإنسان ﴿عَنْهُ﴾ أي: عن هذا الاستعمال السليم لهذه الحواس ﴿مَسْـُٔولًا﴾ أمام الله تعالىٰ يوم القيامة.

وقال تعالىٰ في **النهي الثاني:**

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾

أي: كن متواضعًا ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ تمايلًا، وتفاخرًا وغرورًا. حيث ﴿إِنَّكَ﴾ عبد ضعيف ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ بقدميك وطئًا ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ بهامتك ﴿طُولًا﴾ وإعجابًا بنفسك. ثم يقول الله تعالىٰ:

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

أي: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ الذي مرَّ في هذه الوصايا: فيه الأمر بالحسن، والنهي عن السيء، و﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ فلا تقربوه؛ لتنالوا السعادة في الآخرة.

كما يقول المولى عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي مرَّ من الوصايا.. هو ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ﴾ أي: من عين ﴿ٱلْحِكْمَةِ﴾ مما يحكم العقل بصحته، وتصلح النفس به.

ثم يقول له في **النهي الثالث**:

ولا تشرك ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ أحدًا ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ﴾ يوم القيامة لا ناصر لك ﴿مَلُومًا﴾ من نفسك، ومن الخلق، ومن الله ﴿مَّدْحُورًا﴾ أي مطرودًا من رحمة الله.

وبعد هذه الجولة الطويلة مع هذه الأوامر، التي هي من عين الحكمة، والتي توصل مَن يمتثل لها لنوال السعادة في الدنيا والآخرة، يعرض علينا العزيز الحكيم موقفًا من المواقف الضالة لأهل الشرك، فيقول جل وعلا:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يعني: هل خصكم ﴿رَبُّكُم﴾ بالذكور ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ هو لنفسه بناتًا ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ﴾ ؟ حقًا. ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ على الله ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ شنيعًا فظيعًا، حيث أخطأتم ثلاث مرات، كل مرة أبشع من أختها؛ فقد جعلتم الملائكة آلهة، وجعلتموهم بنات، كما جعلتموهم بنات الله، وكله إفك وزور.

ويبين العليم الحكيم سبحانه، أنه أكثر في القرآن من ذكر الدلائل على وحدانيته وقدرته، وأكثر فيه من المواعظ والحكم؛ لأنه أراد الفهم من الناس له، والعمل به. حيث قال جل جلاله:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ﴾ بينا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ كل شيء، ويسرناه ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: ليتعظوا بما فيه، ويستجيبوا لدعوته، والعمل بأحكامه.

﴿و﴾ لكن ﴿مَا يَزِيدُهُمْ﴾ هذا البيان ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ وبعدًا عن الحق، ومعاداة له.

يقول رب العزة، خاطب عقولهم يا محمد، ويا كلّ داعٍ.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

أي: ﴿قُل﴾ لهؤلاء المشركين ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ غيره يعبدونها ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ ويزعمون ويعتقدون.. !!. .﴿إِذًا﴾ في هذه الحالة ﴿لَّٱبْتَغَوْا﴾ أي: لطلبوا الحصول ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو الله تعالىٰ ﴿سَبِيلًا﴾ طريقًا ووسيلة، ليقاتلوه بها حتىٰ ينفردوا بالحكم دونه.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

أي: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تنزه وترفَّع ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ في حقه، من نسبة الشريك، أو الولد إليه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ يليق بذاته سبحانه **فهو الذي...**

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

نعم.. هو الله، الذي ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وتقدسه، وتنزهه عما لا يليق به.

﴿و﴾ كذلك كل ﴿مَن فِيهِنَّ ۚ﴾ من المخلوقات.. تسبحه، وتقدسه.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ في الكون كله ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ سبحانه، بلسان المقال، أو بلسان الحال.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ أنتم أيها البشر ﴿تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ لأنه ليس بلغتكم، أو لقصور فهمكم وإدراككم عن ذلك.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿كَانَ﴾ ولا يزال ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب عن هذه المزاعم الفاسدة وآمن.

وبعد أن تحدثت الآيات عن الإلهيات، يكون حديثها عن النبوات في قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾

يعني: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يا محمد ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ﴾ الكفار ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي: حجابًا لا يُرىٰ، ولذلك لا يهتدون به حتىٰ ولو سمعوه؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أيضاً..

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

أي: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمشيئتنا وقدرتنا ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ حتىٰ لا يفهموه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ أي: ثقلًا حتىٰ لا يسمعوه.

﴿و﴾ اعلم أنك ﴿إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ وأعلنت بذلك التوحيد ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ﴾ رجعوا علىٰ أعقابهم، ﴿نُفُورًا﴾ حتىٰ لا يسمعوا منك، ولا يؤمنوا معك **يا محمد**...

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

أي: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالوجه والحال الذي يستمعون به، وهو السخرية منك ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾. ونحن أيضًا أعلم بما يتناجون به ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ مع بعضهم البعض، ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ منهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ إذا أردتم اتباع محمد ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

يا محمد.. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

يعني: ﴿ٱنظُرْ﴾ إلىٰ حالهم السيء ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ حيث قالوا عنك: شاعر، وقالوا: ساحر، وقالوا: كاهن.... إلىٰ غير ذلك ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن الهدىٰ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إليه ﴿سَبِيلًا﴾.

ولمَّا تكلم ربنا عز وجل في الإلهيات، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم في النبوات.. ذكر بعد ذلك شبهاتهم في إنكار البعث ويوم القيامة. فقال جل وعلا:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

يعني: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي المنكرون للبعث استهزاءً ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ وصرنا ﴿عِظَٰمًا﴾ بالية ﴿وَرُفَٰتًا﴾ وترابًا ﴿أَءِنَّا﴾ بعد ذلك ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ مرة أخرىٰ ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾..؟

إن هذا لشيء بعيد الوقوع، مستحيل الحدوث.. !! **والجواب:**

﴿۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾، ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ آخر غير ذلك ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ويكون أشد من العظام والرفات، فستبعثون خلقًا جديدًا. هل يقتنعون.. هل يسلمون..؟ لا.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مرة ثانية استهزاءً ﴿من يُعِيدُنَا﴾ ويبعثنا مرة أخرى..؟

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هو الذي سيعيدكم، ويبعثكم مرة أخرىٰ.

هل يقتنعون.. هل يسلمون...؟ لا .﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ أي: فسيهزون ﴿إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ إنكارًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمرة الثالثة استهزاءً ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: متىٰ يكون يوم البعث هذا. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ وقوعه ﴿قَرِيبًا﴾ **ويكون ذلك:**

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

نعم.. البعث قريب، قريب ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ ربنا عز وجل للحياة مرة أخرىٰ ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ من القبور، يوم تشقق الأرض عنهم سراعًا، قائمين ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: بأمره سبحانه، ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ ساعتها وقد بعثتم فعلًا ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما مكثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الزمن.

وبعد هذه الردود القوية علىٰ منكري البعث، تتوجه الآيات الكريمة إلىٰ مخاطبة النبي ﷺ ليوجه المؤمنين إلىٰ السلوك الطيب في الدعوة، وفي التعامل، وغير ذلك حيث يقول الحكيم الخبير:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

يعني: اترك يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ المؤمنين موجهًا لهم ومربيًا ﴿يَقُولُوا۟﴾ للكافرين ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ وهي الكلمة الطيبة اللينة، حيث ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ﴾ يفسد ﴿بَيْنَهُمْ ۚ﴾ فلا يجعلهم يقبلون دعوتكم إياهم للإيمان. وليس هذا بغريب علىٰ الشيطان، حيث ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ واضح العداوة، لا يريد له الخير أبدًا.

ويلاحظ أن هذا الأسلوب في التعامل مع الكفار، كان قبل الأمر بقتالهم.

هذا.. وقد يسأل سائل: ما هذه الكلمة الطيبة التي أُمروا بقولها للكافرين؟

فيكون الجواب هي:

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

أي: يقول المؤمنون للكافرين ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ﴾ يعرف مَن يستحق الهداية فيهديه، ومَن لا يستحق ذلك منكم، ولا يقولوا لهم عبارات مهيجة مثل: أنتم ستدخلون النار، أو ستعذبون.. إلىٰ غير ذلك. بل قولوا لهم: ﴿إِن يَشَأْ﴾ ربكم أن ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ رحمكم، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ عذبكم.. فالأمر بيده، لا بأيدينا، والحكم له، لا لغيره.

﴿و﴾ أما أنت يا محمد، فـ ﴿مَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ فتجبرهم علىٰ الإيمان.

ويلاحظ: أن هذا الأسلوب قد نسخ كله بقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

هذا، وليس علمه سبحانه بمقصور عليكم فقط. بل علمه شامل لكل شيء. قال تعالى:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

يعني: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ كلهم، وأعلم بما يليق بهم من المصالح والمفاسد. ولهذا السبب يقول المولىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ﴾ بتخصيص كل واحد منهم بفضيلة من الفضائل، كموسىٰ بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمد بالإسراء والمعراج، وكذلك آتينا موسىٰ التوراة، وداود الزبور، وعيسىٰ الإنجيل، ومحمد القرآن، وفضلناه علىٰ جميع الخلق.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ فلِمَ يستبعدون أن يعطي الله محمدًا القرآن..؟

ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ للنبي ﷺ:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾

أي: خاطب يا محمد الكفار و ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ كذبًا أنهم آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: غير الله، كالملائكة، الذين كان يعبدهم البعض، وعيسىٰ، وعزير، والجن، ولا يدخل في هؤلاء الأصنام. ادعوهم، واطلبوا منهم.. أن يكشفوا عنكم الضر؛ من فقر، أو مرض، أو خوف، أو يحولوه إلىٰ غيركم بدلًا منكم.. !! ستجدون أنهم عاجزون ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يستطيعون ﴿كَشْفَ﴾ هذا ﴿ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ له إلىٰ غيركم.

وليسوا عاجزين فقط.. بل:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

يعني: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أنهم آلهة ويعبدونهم من دون الله كالملائكة، وعيسى، والجن، وخلافهم ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ يطلبون هم أنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي: التقرب، ونوال مرضاته.. بالطاعة، ويتنافسون في ذلك ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ إليه سبحانه بها، ﴿وَ﴾ وذلك لأنهم ﴿يَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ بهم ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ لهم إن عصوه، كما يعذب لذلك غيرهم.

فكيف إذًا: تدعونهم آلهة، وهم على هذا الحال..؟ حقًّا. .﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ أي: واجبًا أن يحذره كل أحد، بالإيمان، ومزيد الطاعة.

يقول ربنا لحبيبه محمد ﷺ: ذكرهم بالقرى التي أهلكنا أهلها لكفرهم، وقل لهم:

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨﴾

أي: وما ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ من القرى الكافر أهلها ﴿إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾ بالاستئصال التام ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ بالبلاء، وقتل الرؤساء، وتسليط المسلمين عليهم.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿مَسۡطُورٗا﴾ أي: مكتوبًا، ومجزومًا بحدوثه لا محالة. وفي هذا ما فيه: من التهديد لهم على عنادهم وضلالهم وكفرهم.

وهنا، كأن قائلًا يقول، وسائلًا يسأل: لِمَ لَمْ يرسل الله لهم ما طلبوا من الآيات التي اقترحوا الإتيان بها ليؤمنوا؟ فكان الجواب:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾

يعني: وما جعلنا نترك إرسال الآيات التي اقترحوها عليك يا محمد ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ عندما أرسلناها إليهم، فكذبوا، فأهلكناهم، ولو أرسلنا إلى هؤلاء ما اقترحوا: لكذبوا، واستحقوا العذاب وأهلكناهم؛ وهذا يكون خلاف ما حكمنا به من إمهالهم لحين تمام أمر الإسلام، ولذلك لم نرسل لهم ما اقترحوا من الآيات.

﴿و﴾ هذا مثال، وهو أننا ﴿ءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ آية، كما طلبوا ﴿مُبْصِرَةً﴾ واضحة ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ فأهلكناهم.

﴿و﴾ على كل حال: ﴿مَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للعباد ليؤمنوا.

ثم يذكِّر الله رسوله ﷺ بأمر هام، حيث يقول:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ وحيًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ﴾ علمًا وقدرة، فهم في قبضته، وتحت إمرته؛ فبلّغهم، ولا تخف أحدًا، فهو سبحانه يعصمك منهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ﴾ إياها عيانًا ليلة الإسراء ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: اختبارًا ﴿لِّلنَّاسِ﴾ وإيمانهم بالغيب، فيثبت منهم مَن يثبت، ويرتد منهم مَن يرتد، وقد كان، حيث ارتد بعض مَن لم تحتمل عقولهم وقلوبهم ذلك.

﴿و﴾ كذلك جعلنا ذكر ﴿ٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ وهي شجرة الزقوم، وهي: ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤، ٦٥]. وهي: ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٤]، أي: طعام الكافر الفاجر.

جعلنا ذكرها ﴿فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ اختبارًا للناس، وإيمانهم بالغيب، ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بها ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ هذا التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ حيث سخروا وقالوا: لا نعرف الزقوم إلَّا التمر والزبد.

اذكر ذلك لتعرف لِمَ لَمْ نجبهم في إرسال الآيات التي اقترحها..؟

ثم يذكره بأمر آخر.. قائلًا:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ سجود تحية ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ كلهم ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الذي كان معهم، وشمله الأمر بالسجود.. فإنه ﴿قَالَ﴾ متكبرًا على أمرنا، معللًا رفضه للطاعة: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي: لمن خلقته من طين، وأنا من النار، والنار أفضل من الطين.

ثم ﴿قَالَ﴾ كذلك ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أخبرني أهو ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾ فضلت ﴿عَلَىَّ﴾، وأنا خير منه، وأفضل منه..؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ وأمهلتن ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ دون موت ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ لأستولين عليهم، وأغويهم، وأضلهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم، وهم المخلصون.

أجابه ربنا عز وجل:

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

أي: أجابه الحكيم الخبير إلى ما طلب، و ﴿قَالَ﴾ له خمسة أشياء:

الأول: ﴿ٱذْهَبْ﴾ فلن تموت إلَّا عند النفخة الأولى. وهذا عن طلبك التأخير إلى يوم القيامة.. دون موت.. وأما عن إغوائك لبني آدم: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ وتأثر بك، وسار خلفك ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أنت وهم ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ كاملًا.

الثاني: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي: استخف بـ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ الاستخفاف به ﴿مِنْهُمْ﴾ وذلك ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي: بوسوستك لهم، ودعائهم إلى المعصية.

الثالث: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ تصرف فيهم، وسقهم إلى ما تريد ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ بجنودك من الركاب والمشاة جميعهم، واستعمل معهم كل وسائلك في الإغراء والإفساد.

الرابع: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ المحرمة كالربا، والسرقة وخلافه، ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ من الزنا.

الخامس: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بالمواعيد الكاذبة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بذلك ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلًا.

وهل يفعل إبليس ذلك في كل الناس؟ لا.. أبدًا.. يقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ المؤمنين الصادقين العاملين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾ يا إبليس ﴿سُلْطَٰنٌ ۚ﴾ من تسلط أو قوة، بل وسوسة فقط، ينتصرون عليك فيها.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ لهم ﴿وَكِيلًا﴾ يؤيدهم، ويحميهم من وسوستك لهم. ولذلك: فالمعصوم مَن عصمه الله..

ثم يعود الحديث إلىٰ ذكر الدلائل الدالة علىٰ: وحدانيته، وقدرته وحكمته، ورحمته.. حملًا لهم علىٰ الإيمان، وإقناعًا لهم به.

حيث يقول تعالىٰ أولًا:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

أي: ﴿رَبُّكُمُ﴾ الإله الواحد، القادر هو ﴿ٱلَّذِى يُزْجِى﴾ يسوق ويدفع ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ وهي السفن ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ جيئة وذهابًا، حاملة لكم ولأمتعتكم ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ تطلبوا بركوبها والسفر بها ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ﴾ تعالىٰ، في الرزق وغيره .﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ في تسخيرها لكم.

ثم يقول ثانيًا:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

أي: ﴿و﴾ هو ربكم الإله الواحد القادر الذي ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ وهو الشدة ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ من خوف الغرق، ﴿ضَلَّ﴾ وغاب عنكم ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ وتعبدون من

الآلهة المزعومة ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ في هذا الوقت، فلا يغيب عنكم، بل تدعونه وحده؛ لأنكم في شدة لا يكشفها إلَّا هو سبحانه.

فإذا دعوتموه نجاكم .﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من الغرق، ووصلتم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ لم تشكروا الله على ذلك وتؤمنوا به، بل ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن ذلك.

حقًّا: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ جاحدًا للنعم وللمنعم إلَّا مَن عصم الله، وقليل ما هم.

ثم يقول: ثالثًا، ورابعًا..

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ كفرتم ﴿فَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ﴾ الله ﴿بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي: الأرض كما فعل بقارونُ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

﴿أَوْ﴾ كفرتم، ﴿فَأَمِنتُمْ أَن﴾ ﴿يُرْسِلَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا ترميكم بالحجارة، كما فعل بقوم لوط عليه السلام، حيث أمطر عليهم ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿ثُمَّ﴾ في أية حال منهما ﴿لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يدفع عنكم هذا العذاب.

ثم يقول خامسًا:

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

يعني: ﴿أَمْ﴾ كفرتم، و﴿أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ﴾ الله ﴿فِيهِ﴾ في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ لشدة حاجتكم لذلك ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ عذابًا لكم ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ وهي الريح الشديدة، التي تقصف وتكسر كل شيء في طريقها ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ في البحر ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفركم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ﴾ في هذه الحال ﴿عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ ناصرًا لكم، وتابعًا يطالبنا بما فعلنا بكم.

ثم يذكر الله تعالى بعض نعمه على الإنسان؛ تذكيرًا له بواجب الإيمان. فيقول عز وجل:

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

في هذه الآية الكريمة أربعة أنواع من النعم على الإنسان:

النوع الأول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بالعقل، والنطق، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة.. إلخ.

النوع الثاني: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾ بقدرتنا ﴿فِي ٱلْبَرِّ﴾ على جميع المركوبات ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ على أنواع المراكب.

النوع الثالث: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾ من فضلنا ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ في المطعم والملبس والمسكن.

النوع الرابع: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ إنعامًا منا ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

ثم لمَّا ذكر ربنا وذكَّر بأنواع النعم على الإنسان في الدنيا، ذكر ـ كذلك ـ وذكر بأحوال درجاته يوم القيامة.. فقال عز شأنه:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾

أي: اذكر يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ﴾ كل الناس ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ نبيهم، أو كتاب أعمالهم، فيقال: يا أمة النبي فلان، أو يا أمة كتاب الخير، أو كتاب الشر.

﴿فَمَنْ أُوتِىَ﴾ منهم ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ المسجل فيه عمله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ وهم الصالحون في الدنيا، السعداء في الآخرة، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ فرحين ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا ينقصون من ثواب أعمالهم ﴿فَتِيلًا﴾ أي: شيئًا ولو قليلًا، والفتيل هو الخيط في شق نواة التمر.

وأما مَن أوتي كتابه بشماله، فأولئك يقول المولى عنهم:

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

يعني: والصنف الثاني ﴿وَ﴾ هو ﴿مَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن آيات الله، ودلائل وحدانيته سبحانه وقدرته، ولم يؤمن ﴿فَهُوَ﴾ كذلك ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ

﴿أَعْمَىٰ﴾ عن طريق النجاة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ عما كان في الدنيا.

وقد دلت هاتان الآيتان.. علىٰ أن مَن يشكر نعم الله في الدنيا، يجزىٰ خير الجزاء في الآخرة، ومَن لم يشكر نعم الله في الدنيا، فهو محروم من فضل الله في الآخرة.

هذا، ولمَّا ذكر سبحانه بعض نعمه علىٰ خلقه، وأصناف الناس بالنسبة لهذه النعم، من حيث الشكر وعدمه؛ ولمَّا شرح أحوال الشاكرين لله، السعداء في الآخرة. أتبع ذلك بما يُعد تحذيرًا للسعداء من الاغترار والانخداع بوساوس أهل الضلال الأشقياء..

فقال جل جلاله:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

أي: ﴿وَإِن كَادُوا۟﴾ أي: قارب أهل الكفر بسبب علمهم برغبتك في إيمانهم ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ليصرفونك ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من الدين والقرآن ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾، ﴿و﴾ لو أنك فعلت ما يريدون ﴿إِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ لهم وحبيبًا، ولكنا ثبتناك علىٰ الحق.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

يعني: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ علىٰ الحق الذي أوحينا إليك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي: لقاربت أن تميل إليهم، لتصل إلىٰ إيمانهم. ولو أنك فعلت ما يريدون ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي: عذاب الحياة مضاعفًا ﴿و﴾ كذلك أذقناك ﴿ضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: عذاب الآخرة مضاعفًا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ﴾ في هذه الحال ﴿عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ لك يدفع عنك.

وفي هذا، تثبيت لكل الدعاة إلىٰ الله، وتنبيه لهم أن يكون خطهم واضحًا، ومنهجهم ثابتًا، لا يتزحزحون عنه، ولا يفرطون فيه ولا يغيرون.

وبعد أن ذكر الله محاولات أهل الكفر خداع النبي عليه الصلاة والسلام، وصرفه عن الذي أوحي إليه، ذكر سبحانه محاولاتهم في إخراجه وصرفه عن مكة.. فقال عز وجل:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

أي: ﴿وَإِن كَادُوا۟﴾ أي: قارب أهل الكفر، بسبب خوفهم من الحق الذي تدعوهم إليه ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليزعجونك ﴿مِنَ﴾ الإقامة في هذه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾.

﴿و﴾ لو أنهم فعلوا ما يريدون، وأخرجوك ﴿إِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ لا يبقون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ بعدك فيها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ حيث يهلكهم الله. حيث إن ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أن نهلك أقوامهم لو أخرجوهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: تبديلًا وتغييرًا. ونحن لم نفعل في قومك ذلك: لأنهم ما أخرجوك، بل نحن الذين أمرناك بالخروج والهجرة.

ولمَّا ذكر الله محاولات أهل الكفر في الخداع، والاستفزاز؛ أمر سبحانه بالاستعانة على محاولاتهم هذه بالعبادة. فقال جل وعلا:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

والمعنى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي الصلوات الخمس، وهي: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ زوال الشمس ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ ظلمته.. يعني: من زوال الشمس، ساعة الظهيرة، إلى ظلمة الليل، ويدخل فيها: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

ثم يقول: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: وصلاة الفجر، وعبر عنها بـ ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ لأن القراءة ركن فيها، وحث على قراءة القرآن في هذا الوقت أيضًا. حيث يقول ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده الملائكة، وتجتمع عنده.

ثم يقول العزيز المجيد له:

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

أي: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ﴾ أي: فصلّ صلاة الله تعالى تطوعًا، غير الفرائض

المذكورة، واقرأ ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن.. وهذه الصلاة ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: زائدة، وثوابها لك. فصلها ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ﴾ يقيمك ﴿رَبُّكَ﴾ يوم القيامة، ويجعل لك ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يحمدك فيه أهل الموقف، ويغبطونك عليه.

وإذا كان ما تقدم، هو عبادة فعلية: فهناك أيضًا عبادة قولية.. يأمرك الله بالاستعانة بها على محاولات أهل الكفر في الخداع، والاستفزاز. حيث يقول سبحانه:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

يعني: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ في القيام بأداء مهمات دينك وشرائعك ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾.

﴿و﴾ قل **ثانيًا:** ﴿أَخْرِجْنِى﴾ من أداء مهمات دينك وشرائعك، بعد الفراغ منها ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ لا يبقى فيه تبعة عليَّ ولا ملامة.

﴿و﴾ قل **ثالثًا:** ﴿وَٱجْعَل لِّى﴾ يا رب ﴿مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ حجة بينة، تؤيدني بها، وتثبتني على الحق، وتنصرني بها على جميع من خالفني في طاعتك ودعوتك.

﴿وَقُلْ﴾ **رابعًا:** ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو دين الله وشرعه ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ وهو كل ما سواه من الملل والنحل والشرائع.

حيث.. ﴿إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ مهما كانت له صولة، أو دولة.. فإنه ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: لا يبقى، بل يزول على أسرع الوجوه.

وبعد أن أمر ربنا تبارك وتعالى بهذه العبادة، بيَّن أنها ينبغي أن تؤخذ من القرآن؛ ليكون فيها: الشفاء والرحمة. فقال تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

أي: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نزول القرآن، وسماعهم له ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ حيث تلزمهم الحجة، ولا يؤمنون، فيحق عليهم العذاب.

ويلاحظ: أنه ما دفعهم إلىٰ عدم الإيمان، ووقوعهم في الخسران؛ إلَّا حب الدنيا، والاستغراق في ملذات النعم، وجحود المُنْعِم. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾

يعني: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ الكافر، بصنوف النعم.. لم يشكر بل ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر للمنعم، ﴿و﴾ ازداد كفرًا حيث ﴿نَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ غرورًا، وإعجابًا بنفسه.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من مرض أو فقر، أو مصيبة ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ من رحمة الله، فاقد الأمل في عود النعم مرة أخرىٰ إليه.

وهذه: هي طبيعة الكافر !! فهل يزيده القرآن، وجحوده به، إلَّا خسارًا..؟ **ولذلك:**

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لأهل الباطل ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحد منا ومنكم ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: علىٰ ما يناسب طبيعته من الهدى والضلال، فكل إناء بما فيه ينضح ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ﴾ منا ﴿أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ وأقوم طريقًا، وسيحاسب كلًّا منا بما يستحقه. وهذا تهديد لأهل الباطل، ووعيد لهم..

روي أن اليهود قالوا لقريش: اسألوا محمدًا عن ثلاث، فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة، فهو نبي. اسألوه عن: أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح. فسألوه فقال: غدًا أجيبكم، ولم يقل إن شاء الله، فانقطع عنه الوحي أربعين يومًا، ثم نزل الوحي بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ثم نزل الوحي بقصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وأبهم قصة الروح. حيث نزل قوله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

يعني: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ﴾ الذي يحيا به البدن ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: علمه لا يعلمه أحد، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ أنتم وكل المخلوقات التي تعي ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ حيث لا يحيط أحد بشيء من علمه إلَّا بما شاء سبحانه.

ولمَّا بين ربنا أنه ما آتى خلقه من العلم إلَّا قليلًا. يبين كذلك أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل، لقدر عليه. إذْ يقول سبحانه:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

أي: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القرآن، حيث نمحوه بقدرتنا من الصدور والمصاحف ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ يمنعنا من ذلك. ولكنا لم نفعل، بل أبقيناه إلىٰ يوم القيامة، وما أبقيناه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ عليك وعلىٰ الدنيا كلها. وهذا فضل من الله، حقًّا ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

وإذا كان هذا مع محمد ﷺ، فهو مع غيره آكد وآكد.

لاحظوا: أن في ذلك دليلًا علىٰ أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ، بل هو من عند الله، الذي يقدر أن يذهب به، ويقدر أن يبقيه إلىٰ يوم القيامة. وما داموا يشكون أنه من عند محمد، فليأتوا بمثله، ولكن أنىٰ لهم ذلك..؟

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

يعني: ﴿قُل﴾ لمن يشكون أن القرآن من عند الله ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ كلهم، وتعاونوا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟﴾ من عند أنفسهم ﴿بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وما فيه؛ ليثبتوا أنه من عندك، وأنك فعلت كما فعلوا.. !! ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أبدًا. حتىٰ ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ مساعدًا في تحقيق هذا الغرض.

وما داموا لا يستطيعون، فليؤمنوا وليتعظوا بما فيه..

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بينّا ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعًا ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ مثلًا ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ليتعظوا.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بربهم، وما اتعظوا، وآمن القليل، وانتفعوا بما فيه، واتعظوا به.

وهذه الأكثرية عاندت وبقيت علىٰ كفرها، ومنهم أهل مكة الذين أصروا علىٰ الكفر:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

يعني: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ﴾ تأتينا بواحد من هذه الأمور الستة:

الأول: ﴿تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ أي: تفجر لنا في أرض مكة عينًا، نشرب من مائها.

الثاني: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾

يعني: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ كما في يثرب ﴿وَعِنَبٍ﴾ كما عند أهل الطائف ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أيضًا ﴿خِلَٰلَهَا﴾ وبين أشجارها وممراتها ﴿تَفْجِيرًا﴾ يكون به ماؤها غزيرًا.

الثالث والرابع: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾

يعني: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي: قطعًا نراها بعيوننا.

﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ كلهم ﴿قَبِيلًا﴾ أي: أصنافًا، ونراهم بعيوننا، ويشهدون لك بنبوتك.

الخامس والسادس: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

يعني: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ﴾ مبني ﴿مِّن زُخْرُفٍ﴾ من ذهب. ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ تصعد ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بسلم ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لو رقيت فيها، خوفًا من أن تكون قد سحرتنا ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ منها ﴿كِتَٰبًا﴾ فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ فنؤمن لك.

ولأن كل هذه المطالب تعنت في تعنت، وعناد في عناد. فقد قال تعالى له ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ تعجبًا من موقفهم، وتنزيهًا لربك ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ ماذا تطلبون مني؟ ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ كسائر الرسل، والرسل لا يأتون إلَّا بما يوحي إليهم به ربهم، وأنا بشر مثلهم لا آتي إلَّا بما يوحي إليّ به ربي.

علىٰ كل حال هذه مشكلة المعاندين، وهي بشرية الرسل، يقول المولىٰ عز وجل:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

يعني: ﴿مَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ من الإيمان لمَّا ﴿جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوٓا۟﴾ تعجبًا واستهزاءً ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

أي: ﴿قُل﴾ لهؤلاء، نعم لأنكم بشر، بعث الله إليكم بشرًا، ﴿لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ فيها ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ مقيمين عليها لا يرحلون منها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ يناسبهم، كما نزلنا عليكم بشرًا رسولًا يناسبكم .ثم..

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ علىٰ صدقي في دعواي، حيث ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ جميعًا ﴿خَبِيرًۢا﴾ ببواطنهم ﴿بَصِيرًا﴾ بظواهرهم.

ولهذا.. فهو أعلم بمن يستحق الهداية، ومَن يستحق الضلال.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

أي: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ ويوفقه لمَا فيه الهدى، ويلتزم به ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ﴾.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ الله، ولا يوفقه لمَا فيه الهدىٰ، أو يعرف ولا يلتزم به ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ أبدًا ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ سبحانه يهدونهم وينصرونهم.. وهذا في الدنيا.

وفي الآخرة يقول ربنا: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهم يمشون ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويكونون ﴿عُمْيًا﴾ لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ لا يتكلمون ﴿وَصُمًّا ۖ﴾ لا يسمعون.

وفي النهاية: يكون ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾ إقامتهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ بنيرانها وعذابها ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سكنت ﴿زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ عذابًا بلهيبها.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

يعني: ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ الذي يستحقونه.. بسبب:

أولًا: ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

ثانيًا: أنهم كفروا بالبعث ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ بالية ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ؟ إن هذا لا يمكن أن يكون.

لقد كفروا، ثم كذبوا، فاستحقوا ما ينتظرهم من العذاب.

إن المولىٰ سبحانه وتعالىٰ بعد أن أجاب علىٰ شبهات منكري النبوة، يعود بالحديث مرة أخرىٰ؛ ليرد علىٰ شبهات منكري البعث الذين ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ فيقول تبارك وتعالىٰ:

﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَـٰدِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

والمعنىٰ: أيستبعدون علىٰ الله تعالىٰ أن يقدر علىٰ بعث العباد؟ كيف يكون هذا..؟!! ﴿أَ﴾ عموا، وجهلوا ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ ويعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بقدرته ﴿قَادِرٌ﴾ أيضًا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: علىٰ أن يعيد خلقهم ثانيًا، ويحاسبهم علىٰ هذا الإنكار؟ هذا.. وليعلموا جيدًا أنه سبحانه ﴿جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ محددًا معلومًا، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعيدهم فيه، ويبعثهم للحساب والجزاء.

وقد وضح الله هذه الدلائل جيدًا ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الانتفاع بها، وما كان موقفهم منها ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ بها، وجحودًا لها، ونفورًا منها.

ولمَّا كان الكافرون قد قالوا للنبي ﷺ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] فنزرع ونتوسع في الرزق والإنفاق.. !! بين الله لهم أنهم لو ملكوا خزائن الله؛ لبقوا علىٰ بخلهم. حيث يقول للمصطفىٰ عليه الصلاة والسلام:

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

أي: ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ من الرزق والمطر، وطلب منكم أحد شيئًا ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ بما عندكم، وبخلتم، ولم تعطوه ﴿خَشْيَةَ﴾ الفقر من هذا ﴿ٱلْإِنفَاقِ﴾ المطلوب منكم.

﴿و﴾ لا غرابة في هذا حيث ﴿كَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر بطبعه ﴿قَتُورًا﴾ أي: بخيلًا.

هذا، وفي معرض الرد علىٰ أهل الكفر لمَّا قالوا للنبي ﷺ: لن نؤمن لك حتىٰ تأتينا بهذه المعجزات التي ذكروها، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ﴾ [الإسراء: ١٠١] معجزات أقوىٰ مما طلبتم، فماذا فعل قومه..؟ فلنقرأ قوله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ﴾ معجزات ﴿بَيِّنَـٰتٍۖ﴾ واضحات. ثم قلنا لموسى: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: اطلب خلاص بني إسرائيل من فرعون ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ مصر. وسأل موسىٰ بالفعل فرعون قائلًا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

فماذا فعل فرعون؟ قال له: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ مغلوبًا علىٰ عقلك.

فماذا قال موسىٰ عليه السلام؟

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات التسع ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فأنا نبي، ولست مسحورًا. وقد أنزل رب السمٰوات والأرض هذه الآيات ﴿بَصَآئِرَ﴾ دلائل واضحة؛ يبصرها كل إنسان، وقد أبصرتها ورأيتها أنت، ولكنك معاند. ثم قال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ هالكًا، ومعذبًا علىٰ كفرك وعنادك هذا.

فهل سكت فرعون عند هذا الحد؟ كلا، يقول المولىٰ سبحانه:

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾

يعني: ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون، وحاول جاهدًا ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ يستأصلهم بتعذيبهم، وقتلهم وإفنائهم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي أرض مصر. ولكن، لأنه طاغية ظالم، كافر معاند؛ كان له العزيز الجبار بالمرصاد.

يقول عز وجل: ﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُ﴾ في البحر عند لحوقه بموسىٰ ومَن معه، فأغرقه الله هو ﴿وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

أي: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بعد هلاك فرعون ﴿لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: أرض الشام، ثم الأرض كلها بعد تشتتهم.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: الإفسادة الثانية ـ كما في أول السورة [٧] ـ ﴿جِئْنَا بِكُمْ﴾ من أرض الشتات إلىٰ فلسطين ﴿لَفِيفًا﴾ أي: جماعات.

وذلك ليسوءوا عبادًا لنا أولي بأس شديد وجوهكم، ويحققوا فيكم وعد الله. وتحتمل الآية أيضًا ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهي القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ مختلطين فنميز محسنكم ومسيئكم، ونجازي كل فريق بما يستحق.

فهل فهمتم يا كفار مكة، ويا كفار العالم هذا الدرس..؟ فتكون النتيجة.. إيمانكم بالله، وتصديقكم لمحمد ﷺ، واتباعكم للقرآن الكريم، وما فيه من تشريعات خاصة وأن الله تبارك وتعالىٰ يقول عنه:

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

يعني: وبالدعوة إلىٰ الحق أنزلنا القرآن، ﴿وَبِٱلْحَقِّ﴾ الذي يحتويه، ويشتمل عليه، ويدعو إليه ﴿نَزَلَ ۗ﴾ من عندنا لم يتطرق إليه تبديل أو تحريف.

﴿و﴾ هؤلاء الذين يعاندونك، ويقترحون عليك المعجزات.. لا عليك من كفرهم، فإنا ﴿مَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك بالنار.

قالوا: هب أن هذا القرآن الذي تدعي أنه نزل بالحق، أما كان من الواجب أن ينزل عليك كله، جملة واحدة..؟ أجاب الله تعالىٰ بقوله:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

أي: لم ننزل هذا القرآن جملة واحدة، بل ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ وفرَّقناه إلىٰ أجزاء في نزوله عليك ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وتبلغه إليهم ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: تؤدة وتمهل وأناه.

﴿و﴾ هكذا ﴿نَزَّلْنَٰهُ﴾ عليك ﴿تَنزِيلًا﴾ علىٰ حسب الحوادث والوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

هذا، وما دام القرآن قد نزل بالحق، وكان من حكمة الله أن فرق نزول آياته في ثلاث وعشرين سنة.. فإن الله يقول لحبيبه ﷺ: قل لهؤلاء الأقوال الثلاثة الآتية:

الأول: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ﴾ لكم مطلق الحرية، فالنفع لكم وحدكم، والضرر عليكم فقط.

يا أهل الكفر.. لا تعاندوا.. فإن العقلاء من ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب: لم يعاندوا، بل آمنوا به.. بل أكثر من هذا.. اسمعوا.. !!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ في كتبهم السابقة ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل القرآن، كانوا ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ بكل خشوع وخضوع، ودون تكبر أو عناد، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ تعظيمًا له وتوقيرًا ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ ببعث محمد، ونزول القرآن عليه، كما جاء على لسان الأنبياء من قبله ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أي: واقعًا.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ في سجودهم ﴿يَبْكُونَ﴾ خضوعًا لله، وخوفًا من عذابه، ورجاءً في رحمته ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ أي: إيمانًا وتسليمًا، ورقة قلب، وحلاوة ذكر.

الثاني: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

يعني: ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ﴾ فهما اسمان لإله واحد، وليسا إلهين كما تفهمون وتعيبون، وذلك لمَّا قالوا: ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهًا آخر مع الله. على كل حال: ﴿أَيًّا مَّا﴾ أي: اسم ﴿تَدْعُوا۟﴾ الله به، فهو حسن ﴿فَلَهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ كلها، وهذان الإسمان منها، ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ حتى يسمعك المشركون فيسبون، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى لا يسمعك مَن خلفك من المسلمين، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: كن وسطًا في هذا الأمر؛ وهو طبيعة المسلم في كل أمر، وخير الأمور أواسطها.

ثالثًا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

يعني: نَزِّهِ الله وعظمه، بعد أن ثبتت له الأسماء الحسنىٰ في الأذهان.

﴿وَقُلْ﴾ في هذا التعظيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، الفرد الصمد، ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت فرق من اليهود والنصارىٰ، وغيرهم. وقل كذلك في هذا التعظيم الحمد لله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما زعم المشركون. وقل ـ ثالثًا ـ في هذا التعظيم الحمد لله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ﴾ ينصره ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: لم يُذل فيحتاج إلىٰ ناصر.

﴿و﴾ أخيرًا ﴿كَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظمه تعظيمًا، باتباع شرعه، والخضوع لأحكامه، وطاعة رسوله ﷺ.

* * *